الفصل الثالث

الغربـــة

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثالث

الغربــة

من المعروف أن الشاعر اليمني الحديث قد تفاعل مع المتنبي تفاعلاً تاماً وصور في الوقت نفسه حال الغربة والبعاد التي لازمت شطراً كبيراً من حياة المتنبي، فالغربة من وجهة نظر أي شاعر كان حالة إنسانية، وهي كذلك مناجاة لشاعر صاحب موقف أو مواقف وقد يكون موقفه مليئاً بالحزن، وفي معاناة الغربة لم يغب المتنبي عن شعراء اليمن، فقد اتخذ الزبيري الطائرَ معادلاً رمزياً في قصيدته" حنين الطائر، إذ يقول :

مـــا علـــى الأقـــدار إن عـــدت ... لأهلـــي مـــن جنـــاحِ

آه مـــاذا تـــصنع الآهـــات ... في البـــيض الـــشحاحِ

تَعِـــسَ الـــدمعُ، إذا لم ... يـــستطع حـــل ســـراحي

البكـــا أعجـــزُ مـــا اســـتخد ... مـــت في كـــسب النجـــاحِ [1]

فالزبيري يشير في هذه الأبيات أن دمعَهُ أعجز ما استخدمه "في كسب النجاح لبلادهِ، وكانت قصائده الباكية المغرقة في الرومانسية – وهي رومانسية ثورية كانت صوته الثاني، الصوت الحزين في دعوته للثورة والتغيير "[2]. وعلى الرغم من أن الزبيري قد استخدم مع أعدائه القوة بكل مقوماتها ودلالاتها وهذا أمرٌ لا يحتاج إلى جدال ولا نقاش ولا مراء، وقد عبر عن هذا المعنى المتنبي الذي رأى أن البكاء هو أضعف السلاح عند المدافعة وأظهره تقصيراً عند المطالبة فهو لا ينفع والدمع لا يغني ولا يدفع شيئاً، ولا يحرك ساكناً في المعارك، بل يجلب الهوان والضعف، إذ يقول المتنبي:

---

(١) الأعمال الشعرية (ثورة الشعر)، ص٢٢٥.

(٢) الأبعاد الموضوعية والفنية لحركة الشعر المعاصر في اليمن ، ١٩٧ .

بـــأبي الوحيـــدُ وجيـــشهُ متكـــاثرٌ يبكـــي ومـــن شـــر الـــسلاح الأدمـــعُ
وإذا حـصلت مـن الـسلاح علـى البكـا فحـشاك رُعـت بـه وخـدك تقـــرعُ[1]

ويبدو أن الزبيري في قصيدته (الحنين إلى الوطن) كان أكثر توفيقاً من غيره في التعبير عن الغربة وويلاتها، بل إن الغربة عنده: غربتان: خارجية وداخلية، إذ يقول:

آه ويـــح الغريـــب مـــاذا يقاســـي مـــن عـــذاب النـــوى ومـــاذا يعانـــي
كُـــشِفَـــتْ لـــي في غربتـــي سَـــوءةُ الـــدنيا ولاحـــت هناتـــها لعيانـــي
كلـــما نلـــت لـــذَّةً أنذرتنـــي فتلفـــت خيفـــة مـــن زمانـــي
وإذا رُمـــتُ بـــسمـــةً لاح مـــرأى وطنـــي فاستفزنـــي ونهانـــي
لـــيس في الأرض للغريـــب ســـوى الـــدمع ولا في الـــسماء غـــير الأمـــاني[2]

ويبدو أن الزبيري قد عارض بقصيدته هذه قصيدة المتنبي التي قالها في غربته بشيراز وفيها يقول:

مـــغاني الـــشعب طيـــاً في المغـــاني بمنزلـــة الربيـــع مـــن الزمـــان
ولكـــن الفتـــى العربـــي فيـــها غريـــب الوجـــه واليـــد واللـــسان[3]

فإذا تأملنا شعر الزبيري فإننا نجده في أغلبه محفزاً لشحذ الهمم، فهو ثورة دائمة ونارٌ متوهجة لا تنطفي، وهذا يتطابق مع نفسه وشجاعته ومواقفه النضالية والجهادية، وهذه كلها لم تبارح المتنبي فالزبيري كما يبدو كان الأقرب في فخره وقوة إرادته إلى المتنبي، ولعل التقارب يكمن بين الشاعرين في غرضي المدح والفخر، وقد بدا ذلك واضحاً في كل من (كافوريات المتنبي) و(وثنيات الزبيري) وهي القصائد التي مدح بها الإمام بهدف الإصلاح. غير أن شعر الزبيري من الناحية الفنية يميل في بعضه إلى الوضوح والتقريرية في حين مال شعر المتنبي في أغلبه إلى التقنية الفنية العالية، فضلا عن توفقه في الناحية الموضوعية، والتي أصاب بها

(١) شرح ديوان المتنبي ٣/ ١٧ .
(٢) ديوان الزبيري (صلاة في الجحيم)، ٣٢٦
(٣) شرح ديوان المتنبي ٤/٢٥١.

وبسهام عديدة ما كان يختلج في نفس كل عربي .و يرجع سبب تأثر الشعراء بموروث المتنبي إلى ثورية المتنبي، ورفضه الضيم وإبائه.

وقد كان الحضراني في غربته في روما سنة ١٩٦١م أقرب إلى غربة المتنبي في شيراز في كل معانيها ومضامينها ودلالاتها ،فقد أنشد المتنبي نونيته في شيراز عام (٣٥٤هـ) بعد أن عصفت به الغربة، واصفاً شِعب بوّان، وجمال طبيعته قائلاً:

مغاني الشعب طيباً في المغاني بمنزلة الربيع من الزمان

ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان[1]

مع هذا لم يستحوذ الشِّعب رغم جمال الطبيعة فيه، ولا أهله على إعجاب المتنبي فقد انعطفت ذكرياته إلى دمشق ورياضها ،وأهلها ففضلها على شعب بوان ومن حل فيه، وأوضح تأثره بالغربة وحنينه إلى بلاده وقومه وخصالهم العربية:

ولو كانت دمشق ثنى عناني ليبق الثرد صيني الجفاني[2]

وإذا كان المتنبي يستطرد في ذكرياته عما لاقاه في دمشق، فإن الحضراني قد عبر عن غربته ومرارتها في قصيدته (يمني في شوارع روما)، إذ يقول فيها:

تتساءل الجدران بي وأنا بساحتها أطوف

من ذلك الوجه الغريب وذلك الشبح النحيف

يمشي فيمشي حول هيكله من الماضي يطوف

الذعر في نظراته والرعب والغلق المخيف

ويقول:

يا مهبط (الرومان) هذا ما جنى الزمن العجيفُ

من عهد (حمير) لا يزال يروعنا أو عهد خوفو

والجرح جرح المستبدّ له بأكبُدِنا نزيفُ

أمشي بـ (روما) حائر الخطوات لي سمع كفيفُ

---

(١) شرح ديوان المتنبي ٢٥١/٤.

(٢) م.ن ٢٥١/٤.

يتحسس الكلمات كالأعمى بمهمهةٍ يطوفُ

الدار تنكرني ولكني بساكنها شغوف

أشدو فينكر جوُّها شدوي، وتلفظه السقوف[1]

وقد عبر البردوني عن إعجابه بالحضراني، وقد علق على البيتين السادس والسابع بقوله:"والبيتان السادس والسابع نظرية وراثية مقررة في العلم، وجميلة في الإيقاع الشعري، أما البيت الثامن فلمعة عبقرية زادتها إشراقة لغة السمع الكفيف:

أمشي بـ (روما) حائر الخطوات لي سمع كفيفُ

فهي أروع من غريب الوجه واللسان عند المتنبي." [2] وعن البيت التاسع يقول البردوني: "على ما فيه من صور، فهو توضيح غير ضروري، فقد كانت كلمة السمع الكفيف إيماءة مشرقة إلى حيرة الغريب بين من لا يفهمهم ولا يفهمونه، وهذه الإيماءة غنية الاحتمال، ولو لم يكن البيت التاسع لترك للقارئ مجال التصوير والتخييل، لكن الإيضاح المتناهي حرم القارئ متعة التصور والرنو إلى إضاة الرمز، فبعد أن عرفنا السمع الكفيف لا قيمة للبيت الذي تلاه

يتحسس الكلمات كالأعمى بمهمهةٍ يطوفُ "[3]

ويرجع السبب في ذلك إلى أن تشبيه الكفيف بالأعمى إلى تشبيه الماء بالماء والغراب بالغراب؛ ولأن تشبيه الشيء بنفسه أو مثله بفقد التشبيه الأبعاد الشعرية.[4].

والحق أن توظيفاً كهذا له أهمية خاصة، إذ إنه خلق دلالة جديدة اختلفت عما هي عليه في الصورة القديمة- وقد وفق البردوني فيما ذهب إليه، ويبدو أن الموقف النقدي قد انطلق من روح الدعابة التي تتوافق مع معاناة البردوني، الذي يعاني من

---

(١) ديوان الحضراني، ص ١٩٩،وينظر: القطوف الدواني، ص١١٦ .

(٢) رحلة في الشعر اليمني قديمه وحديثه، ص٧٦ وينظر: ديوان الحضراني، ص ١٢٥، وينظر: القطوف الدواني، ص١١٦ .

(٣) رحلة في الشعر اليمني قديمه وحديثه، ص ٧٦ وينظر: ديوان الحضراني، ص ١٩٩، وينظر: القطوف الدواني، ص١١٦ .

(٤) ينظر رحلة في الشعر اليمني قديمه وحديثه، ص٧٦ ديوان الحضراني، ص ١٢٤- ١٢٥، وينظر: القطوف الدواني، ص١١٦.

الغربة الداخلية أكثر من غيره من الشعراء المعاصرين له، كذلك وفق الحضراني في قصيدته هذه، والتي تعبّر عما يعانيه الغريب في غربته. كذلك، وهذا يتوافق مع طموحه و ثورته وموقفه الرافض.

وحينما زار الحضراني واشنطن، نزل ضيفاً على السيد الشاعر قاسم بن علي الوزير، ومما قاله في هذه الزيارة قصيدته(غريب في بلاد الأعاجم)، وفيه يقول:

ظلمت لسان الشنفرى إذ جررته معي لبلاد البعد بن الأعاجمِ

ومن نزل الأيام وهي بخيلةٌ نزول غريب في رحاب الأكارمِ[1]

ويعلق البردوني على شاعرية الحضراني بقوله:"فالحضراني شاعر في كل الوجوه أصالةً وفكرةً وتعبيراً،والدليل على أصالته أنه لم يتخلَّ عن الشعر على حين سكت الكثير من زملائه تحت وطأة الصدمة، فعندما أطلق من حجة تابع سيره في قصائد قصيرة ومقطوعات"[2].

ويعد المقالح خير من جسد تجربة الغربة التي امتزجت بالحنين إلى وطنه، وقد أخذت قصائده نصيباً كبيراً من شعره و"ضمن تعابير شعورية وانفعالية إيحائية ومباشرة، لكنه حين جسدها عن طريق نماذج من شخصيات التراث استطاع أن يطلق عليه (التجربة الأنموذج)،لأن الشاعر قد جعل من تلك الشخصيات وتجاربها الاغترابية معادلاً موضوعياً وفنيًّاً لتجربته، ولاسيما شخصيات الشعراء، وكأنه بذلك يعلن بأنه قد عانى الغربة بأشكالها المتعددة"[3] .

ولعل قصائده قد أثبتت فعلاً عن مدى معاناته من الغربة، لقد كان المقالح أكثر الشعراء مقدرةً على استحضار الصور من التراث الشعري،مع الإبانة عن مصدرها وأصلها القديم، وفي قصيدة المقالح "السفر في الذاكرة الأبجدية "والتي

---

(١) ديوان الحضراني، ص٣٢٠، وينظر: القطوف الدواني، ص١١٦. وللشاعر لطفي أمان قصائد تدل على الغربة منها (غريب)، و(غريبان)، ينظر: الأعمال الشعرية الكاملة١/١٢٦، ٣٥٥.

(٢) رحلة في الشعر اليمني قديمه وحديثه، ص ٧٦ وينظر: ديوان الحضراني، ص ١٩٩.

(٣) استلهام التراث في شعر عبد العزيز المقالح، خديجة حسين المغنج، ص١٥٢.

أهداها إلى روح الشهيد "علي عبد المغني"عمد إلى تضمين أبيات من الشعر القديم منه العجز الأخير من بيت المتنبي(ما لجرحٍ بميت إيلام) [1].

كذلك ترى المقالح مجيداً في رسم الصورة كما في قوله في قصيدته "رسالة إلى سيف بن ذ ي يزن":

غريب أن رحلتَ،

غريب الوجه في الدار

وبين عبيد ليل الأرض،

تبحث عن ملائكة وثوّار[2]

فهذه صورة تومئ بنفسها إلى غربة المتنبي في شعب بوّان:

ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان[3]

فالشاعر يشعر بالغربة، فإذا الفتى العربي يشكو الغربة في (بوّان) كما يرى المتنبي، فإن الشعب العربي عند المقالح (بوّان) أخرى لافتقاده الانسجام النفسي، على الرغم من أن لغته واحدة.

أما علي محمد لقمان فقد تأثر بالمتنبي في كثير من قصائده، غير أن الاتجاه الوجداني كان السائد من هذه الأفانين الشعرية، وإذا كان للمتنبي نصيبٌ ضئيل من النسيب مع علمنا من أنه أحب وأخلص للحب، فقد كان لهذه الضآلة قيمتها الفنية العالية، وهذه التقنية هي التي جعلت لقمان يتأثر بها، لأنه عانى من الحب ما عانى من ويلات شتى كادت تعصف بقلبه وتصدعه، فقد قال في قصيدته (غزل وسياسة) ومطلعها:

في مغاني الجمالِ ليل طويلُ ونهار جوى وشوق شكولُ

لا ترى غير ساهر في حنين شاعرٌ لا يقول أو لا يقولُ

في رياضٍ عبيرها من غوانٍ عاطراتٍ وماؤها سلسبيلُ

---

(١) الأعمال الشعرية الكاملة، ٦٥٤/٢ .

(٢) الأعمال الشعرية الكاملة ٦٠١/٢ .

(٣) شرح ديوان المتنبي ٢٥١/٤.

فحـــبيبٌ عيـــونه في حبـــيبٍ ... وخلـــيلٌ فـــي مقلتيـــهِ خلـــيلُ
كـل ممـشوقـــة لبانـة مـشـتاق ... عـــلى خـــدِّها دم مطـــلولُ
يـا بنـات السما في الأرض لا تحجبن ... حـسناً فالحـسـن أفـقٌ جمـيلُ
أنـا لا أبعـــثُ الرســول إليكـــن ... بوجـدي فلـن يعـــود الرســولُ
جئـت بالنغمـة الـتي تتـغنى ... بهـوى وحـبّهُ نـسيمٌ علـيلُ[1]

وقد كانت هذه المعاناة على أشدها لدى المتنبي الذي يصور لنا وقعة الغريب، وما يعانيه من طول ليله في غربته، وما يكابده فيها في قصيدتين: الأولى من الخفيف، وفيها يمدح سيف الدولة، ويشكره على هدية كان قد بعثها إليه من حلب يطالبه بالرجوع إليه، وكتب إليه بها سنة إحدى وخمسين وثلاث مئة من الكوفة إلى حلب، ولكنه في قصيدته يصرح بما يجيش بعاطفته من حبٍّ، ولعل غيرته خير من أفصح عن هذا الحب، إذا يقول:

مالنـا كُلُّنا جـوٍ يـا رسـولُ ... أنـا أهـوى وقلـبُكَ المتـبولُ
كلَّمـا عـاد مَـنْ بَعَثْـتُ إليـها ... غـار منـي وخـان فيمـا يقـولُ
أفـسدت بيننـا الأمانـات عينـا ... هـا وخانـت قلـوبهنَّ العقـولُ[2]

والثانية من الطويل:

ليـاليَّ بَعْـدَ الظـاعنينَ شـكولُ ... طِـوَالٌ وليـل العاشـقين طويـلُ
يُـبنَّ لـيَ البـدرَ الـذي لا أريـدُهُ ... ويخفـينَ بـدراً مـا إليـه سبـيلُ
ومـا عـشت مـن بعـد الأحبَّـةِ سَلْـوَةً ... ولكـنني للنائـبات حمـولُ[3]

---

(١) الأعمال الشعرية والمسرحية الكاملة (هدير القافلة) ١/٣٩٣ ـ٣٩٤.

(٢) شرح ديوان المتنبي ١٤٨/٣. والجوى الذي أصابه الجوى، وهو داء في الجوف، والمتبول: الذي هيّمه الحب وأسقمه.

(٣) شرح ديوان المتنبي٣/ ٩٥. وشكول: جمع شكل. وشكل الشيء: مثله. وجمع القلة: أشكال، وأتى هنا بجمع الكثرة، لأنه أبلغ في شكوى الحال. والظاعنين: جمع ظاعن، وهو المرتحل.

فالمتنبي في قصيدته الأولى يتهم رسوله الذي أرسله إلى محبوبته بمشاركته في حبها، وعلى الرغم من تأكيده أنه - أي المتنبي - هو العاشق إلا أنه يرى أن من يبعثه إليها يُفْتَنُ بها وهذا يعود إلى جمالها، وعلى وجه التحديد عيناها الساحرتان، وما تودعه في القلوب بفنون لحظهما الذي أفسد الأمانة مع من يبعثه إليها ويرى أن ليالي بعد الظاعنين من أحبته متشاكلة في طولها متشابهة في تعذيبه بها، ويشبه ذلك بليل العاشقين في طوله وبما يقاسونه من السهر، وما يتجدد لهم فيه من الفكر، فهكذا كان ليل المتنبي طويلاً لبعد الحبيب عنه، وقد أكَّد هذا البعد والمكابدة، فكم كان يتمنى أن تكون مواصلة أحبائه له التي لم تبارحه؛ والعكس كذلك في الشق الآخر من أمنيته، فيتمنى أن تكون المسافة بينه وبين المصائب المسافة نفسها التي بينه وبين أهله وأحبته، فإن تحققت أمنيته، هدأت روحه المشتعلة وتقلصت معاناته لكن كل ذلك لم يتحقق على أرض الواقع، فيقول:

فيا ليت ما بيني وبينَ أحبَّتي ... مِنَ البُعْدِ مابيني وبينَ المصائبِ[1]

ومن تأملنا لمعاناة الشاعرين (المتنبي ولقمان) تتضح ملامح الالتقاء، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه عن هذا الحب، ما هو؟ وما طبيعته؟ وهل أخذت دلالات أخرى؟ أم أنها سارت على السياق نفسه ؟ فهذا الاستفهام يقودنا أيضاً إلى الإجابة التي تؤكد المنحى الرمزي الذي سارت عليه تجربة الشاعرين، والدليل الآخر ما ذهب إليه علي لقمان في قوله من قصيدته (حوار مع حمامة عصيفرة):

أيا جارتا! ليلُ الغريب طويل ... وأوهامه في الساهرين شكولُ

تغنِّين في وجدٍ وأنتِ مقيمةٌ ... فكيفَ بأحوالي وكيفَ أقولُ ؟[2]

وفي قصيدته (من جبل صبر) يقول لقمان:

طال ليل المعذب المتبولِ ... أفيقوا من العذاب الطويلِ[3]

---

(١) شرح ديوان المتنبي ١٤٨/١ .

(٢) الأعمال الشعرية والمسرحية الكاملة (يا ليل في عصيفرة) ١ / ٨٢٠ .

(٣) م. ن ٧٧٠/١ .

فنصوص لقمان في قصائده الثلاث جعلت من نصوص المتنبي في قصيدتيه محوراً لمعالجة كثير من آلام الغربة ومآسيها، وفي النصين قواسم مشتركة كثيرة وإشارات لما يتجرع كل منهما من مرارات ومصائب وويلات، وقد تختلف أحياناً الرؤى والمقصدية، فإذا كان المتنبي قد اتَّهم رسوله الذي بعثه إلى حبيبته بالخيانة وإفساد العلاقة، عمد لقمان إلى سلك طريقٍ آخر، فلم يبعث رسولاً مؤكداً أنَّ الرسول لا يعود، ولكنه ارتأى أن يبعث وجدانه ومشاعره وروحه ونغمه إلى حبيبته، وقد كان موفقاً في ذلك، ونعزو ذلك إلى صدق عاطفته، وحبه الحقيقي الذي لم يبارحه، في حين أنَّ المتنبي اتخذ من هذا المنأى بعداً رمزيّاً له أبعاده ودلالاته، فالمتنبي لا يرى استرداد الحق إلا بالقوة، في حين كان لقمان مسالماً لدرجة أنه كان يفضِّل أن يخرج الاستعمار البريطاني من جنوب اليمن بالطريقة السلمية.

obeikandl.com